من تاريخ الطب الاسلامى

لصاحب السعادة الدكتور قاسم غنى

سفير إيران بمصر

— ٢ —

٣ — تعريب الكتب الطبية :

ظهر الدين الإسلامى فى أوائل القرن السابع الميلاد وفى خلال سنوات قليلة قهر المسلمون الامبراطوريات وامتد نفوذ الإسلام إلى البلاد الواقعة فى مابين السند والقوقاز وعمها جميعاً ، ثم بلغ أفريقية الشمالية وأسبانيا حتى بعض جزر بحر الروم مثل صقلية وسردينية وغيرها .

وانقضى القرن الأول من الهجرة بالغزو والفتح وتأسيس الحكومات العربية العظيمة فاستولى المسلمون على بلاد كانت مراكز للحضارة ، ودخلت بلاد ، كانت تعتبر حواضر للعلوم والفنون مثل دمشق وقيصرية والاسكندرية فى حيازتهم ؛ وفى أثناء هذه الفتوح وعندما كان المسلمون مشغولين بتدعيم أسس ممالكهم أدركوا أن من المحتم عليهم أن يقتبسوا من حضارات البلاد المفتوحة والأمم المغلوبة ما يمكن اقتباسه ، فبدأوا بذلك وبلغت هذه الفكرة شأوها بوجه خاص فى عهد الخلفاء العباسيين حينما كان للإيرانيين شأن كبير فى إدارة أمور المملكة الاسلامية ، فألحق بكل مسجد مدرسة ، وأنشئت مكتبات ، وأسست مستشفيات ، وبدأوا فى تدريس جميع العلوم ولا سيما علوم الشريعة والطب والفلسفة فى مدارسهم .

قلنا إن النسطوريين وحكماء الأسكندرية الذين سبقت لهم الهجرة إلى المشرق ثم اليهود والأقباط والسريان كانوا قد هيأوا مقدمات هذه النهضة الفكرية قبل بدئها بقرنين ولا سيما السريان منهم وهم من أبناء عمومة العرب ، وذلك بنقل علوم اليونان من السريانية إلى العربية . وسنذكر فيما بعد لمحة عن الترجمة عند العرب

يمكننا أن نقسم المسلمين الذين اشتغلوا بالعلوم المختلفة ومنها الطب إلى طبقتين : المترجمين والمؤلفين .

فالمترجمون منهم كانت براعتهم مقصورة على القيام بالترجمة ، وكانوا يتقنون اللغة العربية كما يتقنون السريانية أو اليونانية أو كلتيهما فيقومون بترجمة العلوم من إحدى هاتين اللغتين إلى العربية وكان هذا كل عملهم .

أما المؤلفون فهم الذين كانوا قد درسوا كل المؤلفات والآثار المترجمة وكان لهم بحث ونظر وآراء خاصة حول مادرسوه وتآليف ظهرت فيها شخصياتهم العلمية بصورة واضحة . كان بعضهم يدخل ضمن كلتا الطبقتين مثل يعقوب الكندى فى الفلسفة ، ويوحنا بن ماسوية وحنين بن اسحق فى الطب ، فإنهم مترجمون كما أنهم فى الوقت نفسه مؤلفون وأصحاب نظر ورأى خاص . فقد كان حنين بن اسحق (ويسميه مترجمو اللغة اللاتينية فى القرون الوسطى يوحاينتيوس yohannittius) من نصارى الحيرة وكان فى شبابه يبيع العقاقير الطبية ويدرس الطب فى نفس الوقت على يوحنا بن ماسويه . ويروى أنه ألقى على أستاذه يوما فى مجلس درسه كثيراً من الأسئلة مما أثار غضب الأستاذ ، فقال له ما لأهل الحيرة وللطب ؟ كان الأجدر بك أن تطوف بأزقة الحيرة وتصرف النقود فتألم حنين من كلام أستاذه وآلى على نفسه أن يتعلم اليونانية ليستغنى بها عن أستاذه فى تعلم الطب ، وقد أتقنها ثم عاد إلى جنديسابور وبرز فى فنه حتى عد من طراز جبرائيل بن بختيشوع وابن ماسويه وأضرابهما أى أنه يدخل ضمن الطائفتين المؤلفين والمترجمين .

وكان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان أول أمير من بنى أمية اهتم بعلوم اليونان اهتماما خاصاً حتى لقب (بحكيم آل مروان) فقد جمع هذا الأمير نظراً لشغفه بكشف أكسير الكيمياء حكماء اليونان المقيمين فى مصر فى رحابه وطلب إليهم أن يعربوا المؤلفات اليونانية والمصرية عن أكسير الكيمياء من اللغتين اليونانية والقبطية ، وهذا حسب ما يعتقد ابن النديم أول نقل فى الاسلام من لغة إلى لغة .

يقول برتلو Marcelin Berthelot فى مؤلفه عن تاريخ الكيمياء فى القرون الوسطى : (كان جل هم الكيماويين الحصول على الأكسير الأعظم وحجر الفلاسفة ، غير أنهم خلال تجاربهم للوصول إلى هدفهم هذا وفقوا لاكتشافات كبيرة فى الكيمياء

ولاتزال المصطلحات الكيماوية التي وضعها العرب مثل الكحول — والأنبيق — وغيرها متداولة في جميع اللغات الأوربية تشهد بما كان للعرب في هذا الفن من سابقة وفضل) .

وهناك أمر هام أرى لزاما على أن أشير إليه وهو أن لوكارك Leclerc يشير في مؤلفه (تاريخ طب العرب) إلى أنه يعتقد أن مبدأ تاريخ اقتباس العرب من علوم اليونان يجب أن يرجع إلى ما قبل زمن خالد بن يزيد بمائة سنة أي أنه يعتقد أن تاريخ فتح مصر يجب أن يعتبر مبدأ لعهد اقتباس العرب من علوم اليونان ؛ فإن يحيى النحوي وكان من ملازمي عمرو بن العاص وخواصه هو نفسه — حسب معتقد لوكارك — يوحنا فيلوبونوس john—PHIloponus شارح كتب أرسطو وكان في الأصل من القسس اليعقوبيين وقام بترجمة بعض المؤلفات اليونانية إلى العربية بعد إسلامه . ويشير ابن النديم في الفهرست ضمن ذكر أسماء مؤلفاته ومقالاته إلى أنه قام بشرح بعض مؤلفات جالينوس الطبية .

وعلى أي الأحوال فإن من المسلم به أنه قد ترجمت في زمن خالد ابن يزيد بن معاوية كتب في الكيمياء والطب وعلوم أخرى من اليونانية .

ويذكر ابن النديم مترجما باسم (اصطفن القديم) ويقول إنه قد ترجم كتباً في الصنعة أي الكيمياء وغيرها إلى العربية لخالد بن يزيد . وكانت هذه الحقبة مقدمة لظهور العلماء أصحاب الرأي والنظر .

ففي عهد المترجمين في القرن الأول الهجري أو بعد ذلك بقليل كانت تراجم كتب الطب وسائر العلوم من اليونانية مزيجاً من الأصل المترجم عنه مع عادات المسلمين ومبادىء الصحة في الإسلام ، ونادرا ما نجد طبيباً مسلماً يبدي رأياً أو نظراً خاصاً ، بل كانوا على الأغلب الأعم يسيرون على النهج الذي سار عليه القدماء في حين أنا نجد في العصور التالية أي في عصور النهضة العلمية الإسلامية علماء كبارا تجاوزوا مرحلة الترجمة والتتلمذ فكان لهم استقلال في الرأي والنظر . ومع أن أساس معارفهم مقتبس ومأخوذ من علوم اليونان — ومع أنهم معترفون بفضل بقراط وجالينوس اللذين يذكرون دائما أسميهما بكل تجلة واحترام — إلا أن النظر والرأي ظاهران بصورة جلية في مؤلفاتهم . ونجد فيها أحياناً نقداً لآثار القدماء ومؤلفاتهم ، فنرى الأطباء المسلمين يقومون بتجارب جديدة في الطب ، وتراهم يطبقون تعاليم طبية مفيدة على المرضى في المستشفيات كما نرى منهم شيئاً كثيراً من الابتكار والابتداع ولا سيما في طرق العلاج واستعمال الأدوية والعقاقير . وقد ترك علماء هذا العهد مؤلفات كثيرة قيمة في هذا الصدد .

وفي هذا العهد نرى الرازي يبدي شكوكا على أقوال جالينوس كما نرى ابن سينا ينتقد فلسفة الشائين في مقدمة مؤلفه حكمة المشرقيين . وفي هذه العصور أصبحت الأندلس وبغداد من مراكز الطب المهمة حتى قيل إنه كان في مكتبة قرطبة وحدها ثلاثمائة ألف مجلد في مختلف العلوم والفنون .

ويختلف حكم الناس بالنسبة للخدمة التي أسداها المسلمون لعلم الطب؛ ففريق يعتقد أنه لولم توجد الحضارة الإسلامية لضاعت آثار بقراط وجالينوس وأمثالهما في ظلام القرون الوسطى ولخسرها العالم إلى الأبد ، وان بقاء هذه الآثار العلمية والمؤلفات كان بفضل وجود المسلمين واهتمامهم بها ، وإن هذا التراث العلمي الغالي لم يسلم بفضلهم من الفناء والضياع فحسب ، بل أضيف إليه الشيء الكثير .

ولما ضعف المسلمون فيما بعد وخرج كثير من البلاد كالأندلس من يدهم كان خسيرما تركوه لأخلافهم ذلك التراث العظيم من العلوم والفنون .

هذا رأي فريق ، غير أن فريقاً آخر يرى ، ورأي معظمهم ناشيء عن الجهل أو الغرض أو التعصب ، أن خدمة المسلمين للطب ليست بذات بال ، فان هذا التراث العلمي بقي مدة كأمانة لدى المسلمين ورجال الكنيسة ، لكنهم لم يضيفوا إليه شيئاً من عندهم حتى جاءت النهضة الأوربية فتسلمه منهم رجال ذلك العهد واستفادوا منه .

والحق وسط بين هاتين العقيدتين المتضادتين المتطرفتين ، فلا ريب أنه لولم يقم المسلمون — بجمع آثار المتقدمين من العلماء وترجمتها ونقدها وشرحها وتفسيرها بتلك الدقة العظيمة لضاع الشيء الكثير من آثار اليونان العلمية . وخير شاهد على ذلك أن كثيراً من مؤلفات اليونان في الطب قد ضاعت نسخها الأصلية

ولم يبق منها إلا ترجمتها العربية مثل الكتاب السابع من التشريح لجالينوس ؛ فالموجود منه الآن — هو ترجمته العربية ليس غير .

زد على ذلك أن بعض الأطباء من المسلمين قد أسدوا إلى عالم الطب خدمات عظيمة ولاسيما في الطب العملي والجراحة ؛ وقد برز كثير منهم في هذا المجال أمثال علي بن العباس المجوسي الأهوازي وأبي القاسم بن خلف الزهراوي .

فان لم نقل إن كل ما وجد في القرون الوسطى من علوم الطب كان بفضل الأطباء المسلمين فلا أقل من انصافهم بذكر الحقيقة وهي أن الطب في القرون الوسطى مدين للطب الإسلامي والأطباء المسلمين ديناً عظيما .

والذين يقصرون فضل حفظ التراث العلمي القديم على العرب فحسب مبالغون في قولهم هذا كذلك ؛ فهؤلاء يقولون أنه لولا المسلمون لانقطعت الصلة تماما بين النهضة الأوروبية والعلوم اليونانية القديمة . وليس مايقولونه كل الحق فان قسطاً عظيما من الكتب العلمية اليونانية كان موجوداً في أديرة المسيحية ، وقد درسها وبحث فيها عدد من رجال العلم وحفظوا للعالم علوم اليونان وطرائق بحثهم ودراستهم العلمية .

وأهمية الطب الإسلامي تقتصر على أنه كان طوال قرون عديدة أي منذ انحطاط الحضارة والعلوم عند اليونان إلى زمن النهضة الأوروبية أهم مصادر علوم اليونان وأصدقها . ولا يفتنا أن نذكر هنا أن الطب الإسلامي كسائر العلوم التي انتشرت بين المسلمين — وإن كان معظمه مأخوذاً عن مؤلفات اليونان وكتبهم فان قسطاً منه مأخوذ ولا شك عن مصادر إيرانية وهندية وسريانية . ومن أراد التفصيل فليراجع الفهرست (طبعة مصر صفحة ٣٤٠ وما بعدها) وفيه أسماء المترجمين الذين ترجموا إلى العربية من اللغات المختلفة ومنهم ابن المقفع وكثير من آل نوبخت الذين نقلوا إلى العربية كثيراً من الكتب الفارسية .

ويجدر بنا أن نشير في هذا المقام إلى أن كثيراً من هذه الكتب التي عربت عن الفارسية الساسانية كان أصلها يونانيا ترجمت إلى الفارسية في عهد الساسانيين ثم قام بتعريبها الإيرانيون أنفسهم ؛ ومن هذه الكتب كتب في المنطق[1] والطب ترجمها ابن المقفع إلى العربية ، وكتاب في الطب أيضاً لثياذوسيوس[1] (Théodseaus) الطبيب الخاص لسابور الثاني عرب من الفارسية

وقد كان للإيرانيين أثر واضح في الطب بصفة خاصة عن طريق مدرسة جند يسابور . فبرغم أن أساس التعليم الطبي في تلك المدرسة كان الطب اليوناني إلا أنه قد اصطبغ بصبغة إيرانية بالتدريج ، وكان للقريحة الايرانية أثر كبير ونفوذ عظيم في منهج التعليم بها .

وقد ترجمت كتب أخرى من اللغات الهندية والقبطية إلى العربية ذكر ابن النديم كثيراً من أسمائها وأسماء الذين قاموا بتعريبها .

(يتبع)

(١) توجد نسخة نادرة من كتاب المنطق لابن المقفع في مكتبة الإمام الرضا بمشهد (خراسان) ونرجح أن تكون نسخة فريدة وقد نسخت عنها في المدة الأخيرة بضع نسخ بأجازة المكتبة المذكورة .

(١) واسمه في الكتب العربية تياذوق

مطبعة الرسالة

تقدم اليوم

تولستوي

قمة من القمم الشوامخ في أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه

للأستاذ محمود الخفيف

مؤلف أحمد عرابي ، وأبراهام لنكولن

تولستوي : أوفى دراسة في العربية لحياة هذا الفنان العظيم ، وهذا الفيلسوف الحر الذي تأثر به الشرق والغرب .

تولستوي : تقرأ حياته كأنك تصاحبه ، تفصيل دقيق لشخصيته ، وتحليل عميق لفلسفته ، وتلخيص واف لقصصه وكتبه جميعاً مع عرض آراء النقاد فيها

٤٣٢ صفحة كبيرة : طبع جميل على ورق أبيض . مزين بنحو ٢٠ صورة ثمنه ٤٠ قرشاً عدا البريد : يطلب من إدارة مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة